

المتصلة للشعراء العباسيين ومعارضته لهم - الخصائص الجمالية والنفسية للشعر العربي أروع تمثل، مما جعل له في البلاد العربية جميعاً مكاناً علياً.

وكل ما قدمت معناه أن وحدة ظلّت تعمّ في تراثنا الشعري ولا تزال نراها ماثلة تحت أعيننا في الشعر العربي المعاصر، حتى عند أصحاب النزعة الجديدة نزعة الشعر الحر، وخاصة عند من أكبّ منهم في مستهل حياته الشعرية على القراءة في التراث الشعري وتذوّق خصائصه الجمالية، إذ لا يزال يحتفظ في شعره بوميض من تلك الخصائص في صياغته وموسيقاه.

٤

وهذه الوحدة التي رأيناها تعمّ في تراثنا الشعري عمّت - ولا تزال - في الفرع الثاني للأدب، فرع النثر، ويضئ القرآن الكريم أعلى صفحاته، وقد تحدثنا آنفاً عن بلاغته المعجزة التي ظلت تغدّي العربية برحيقها الهنيء من صدر الإسلام إلى اليوم، وعلى نحو ما تغدّي الشعر من هذا الرحيق تغدّي النثر، وربما كان غذاؤه أكثر وأوسع، بل لا شك في أنه كان أغنى وأخصب. وأول ما نقرأ فيه بعد القرآن الكريم الحديث النبوي البليغ الذي جرى به لسان الرسول صلى الله عليه وسلم أفصح العرب بياناً بما أوتي من جوامع الكلم، يقول الجاحظ في وصف بيانه: «لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى ولا أبين فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم».

وظل الخطباء والكتّاب في عصر الإسلام والعصر الأموي يتمثلون البيان القرآني والنبوي ويصدرون عنها في كتابتهم وخطاباتهم. ونمضي إلى العصر العباسي الأول وكان المظنون فيه - وقد أخذت تترجم الثقافات الأجنبية والموالي يسهمون بالنصيب الأكبر في الكتابة الأدبية - أن يحدث تطور هائل في النثر فيفقد بعض مقوماته الجمالية في الألفاظ والتراكيب، غير أن شخصيته العربية بمقوماتها البيانية كانت أقوى من أن يعصف بها عاصف جنسي أو ثقافي،